محاضرة رقم : 6

ادموند هسرل (1859-1938)

تعتبر الفلسفة الفينومينولوجية من أكبر التيارات الفلسفية المعاصرة التي تريد التعبير عن التحولات الفكرية التي مست العمق الفكري للثقافة الأوروبية والمتمثل في دراسة ما هو عيني وملموس والسعي إلى تحقيق مجاوزة فعلية للخلاف القائم بين المذهبين المثالي والواقعي، ومحاولة العمل على تقديم الحلول الممكنة للمشكلات التقليدية المتعلقة بالفصل بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، هذه المشكلات الفلسفية حاول "هسرل" احتضانها، فما طبيعة هذا المشروع الفلسفي الذي سعى إلى تأسيسه؟

1ـــــ أزمة العلوم وانبثاق الفينومينولوجيا

لقد تبين أنه منذ القرن التاسع عشر، هو العصر الذي حققت فيه العلوم الطبيعية انتصارات كبيرة من الناحية المنهجية والتطبيقية وثبات خصوبته واتساع تطبيقاته في مختلف المجالات العلمية وبروز الثورة التكنولوجية التي كان تأثيرها في القرن العشرين لافتاً في حدوث أزمة العلوم الانسانية وبدء كذلك أزمة الضمير الأوروبي نفسه، كل هذه العوامل دفعت "ادموند هسرل" إلى التعلق بالفينومينولوجيا، لتصبح تيارا فكرياً فعالاً أسهم في ترميم الاختلالات التي أصابت العلوم الأوروبية في جميع جوانبها، مما اقتضى الأمر الذهاب إلى "جعل التراث كراهنية مطلقة يقتضي إعادة سحبه إلى دائرة الشعور ومعايشته كحدث "[1].

لقد أدرك "هسرل" أن المنهج التجريبي، يعد من أهم المناهج التي شقت طريقها نحو تجديد الوضع المعرفي والابستيمولوجي الذي وصلت إليه الثقافة الأوروبية، واعتباره النموذج لكل معرفة تسعى لأن تتمتع بمواصفات علمية، فاستطاعت أن تقضي على كثير من النظرات التي سجنت نفسها في نطاق الذاتية والمنظومات الفكرية الأسطورية والميتافيزيقية، وأصبح طريق اليقين مشروط باتباع مسالك منهج العلوم الطبيعية والضامن للموضوعية وتقدم العلم، ومنه بدأت فيه الظواهر تخضع للقياس، واكتشاف القوانين الطبيعية وادراك طبيعتها الخارجية التي قادت إلى ضياغة القوانين العلمية.

---

[1] Husserl, La crise des sciences européennes et la phénoménologie, Ed, Gallimard,1976, p.476.

في هذه المرحلة كانت العلوم الانسانية لا تزال تموج في أحضان النظريات الفلسفية والتصورات الميتافيزيقية والحدسية، تخضع لأراء الفلاسفة ولمذاهبهم الفلسفية، وهي بطبيعة الحال يمكن اعتبارها نتاج لظروف العصر وأحداثه، وهي في حقيقة الأمر مزيج من العلم والأسطورة، وصدى لبعض المتعتقدات الدينية الموروثة .

هذه التطورات التي حققتها العلوم الطبيعية، كانت دعامة قومة جعلت علماء النفس والاجتماع والأخلاق، يسارعون في احتضان المنهج التجريبي، فاستطاعت تحويل الظواهر النفسية إلى ظواهر معملية فنشأ خلالها علم النفس التجريبي، وخرجت إلى الوجود مخابر الفيزيولوجيا لأول مرة على يد "فونت" وتعقب في ما بعد هذا المسار "كونديلك" و"شاركو" في توسيع مجال هذه الدراسات النفسية.

أما في علم الاجتماع، نشأت المدرسة الاجتماعية التي تعنى بدراسة منظومة التطورات الاجتماعية ، فتمكن " أوجست كونت" من وضع أسسها ، وسار على هذا المسلك "دوركايم" و"ليفي برويل" ، ومنه اعتبر "دوركايم"(1858-1917)Durkheim أن الظاهرة الاجتماعية شيئاً يخضع للكم والقياس، هذه الدعوة تتعلق بدراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء خارجية، أي يجب دراستها بنفس الطرائق المستعملة في دراسة الظواهر الطبيعية مع الاحتفاظ بخصائصها الجوهرية وقوانينها الخاصة، وفي كونها توجد خارج شعور الأفراد، " لذلك تفترض الدراسة السوسيولوجية معرفة الوضعيات المختلفة للعقل "[(2)]، على ضوء التطورات التي حدثت على مستوى البنية المشكّلة له، ومن جهة اعتبر "ليفي برويل" أن مسألة تحليل العقل جزءا من علم الاجتماع أو علم الوراثة أو البيولوجيا.

انطلاقاً من هذه التحولات التي شهدتها العلوم الانسانية بعد تبنيها منهج العلوم الطبيعية وكان ذلك بفعل تخليها عن الهالة الفلسفية والجوانب الميتافيزيقية والأسطورية، لكن في مطلع القرن العشرين بدأت ملامح الأزمة تلوح في الأفق، أعادت النظر في خصوصيات الظاهرة الانسانية مقارنة مع الظاهرة الطبيعية، وأنها من نوعية مخالفة لها، فانكشف حينها

---

(2) -Gilles Gaston Granger, La raison, Presse Universitaire de France, Paris, 1967, P125

أن الظاهرة الانسانية كيفية لا تقبل القياس ، بينما الظاهرة الطبيعية يمكن قياسها، كما يمكن التنبؤ بالظاهرة الطبيعية في وقوعها إذا عرفنا قانونها، اما الظاهرة الانسانية تشذ عن القانون وتتميز بحرية باطنة، لا يمكن التنبؤ بها، أو بأشكالها المستقبلية، ومنه تكون الظاهرة الطبيعية موضوعية في حين تكون الظاهرة الانسانية أقرب إلى الذات، ومن خلال هذا استخلص "هسرل" أن الانسان ذات وليس موضوعا.

لم تبق المسألة في حدود المنهج العلمي التجريبي، وإنما إمتد الأمر إلى اعتبار نموذج اليقين في العلم، هو المنهج الرياضي الذي يتأسس على انطباق الفكر مع نفسه ويختلف عن الواقع كما هو الحال في المنهج التجريبي، فأصبح اليقين في الرياضيات له مزايا أكثر من العلوم الطبيعية، هذه الأخيرة، أخذت تستلهم النموذج الرياضي في اليقين والموضوعية والشمول، ومن خلال هذا، وجب على العلوم الانسانية لكي تصير علماً، عليها أن تحتذي بالنموذج الرياضي لكي تضمن لنفسها المواصفات العلمية الدقيقة.

2- نقد الديكارتية:

لقد وصل "ديكارت" إلى مفهوم الذات عندما قام بتعريتها من الأفكار المسبقة، فهي تتركب لغويا من ثلاثة مفاهيم (الأنا، الفكر، الوجود)، تقدم كلها الانطولوجيا والمعرفة في عملية إدراك واحدة : عملية التفكير تفترض منطقيا وجود الأنا: فبما أنني أفكر، لذلك أنا موجود، والمسألة لا تتعلق بقياس منطقي نستنتج بواسطته الوجود من الفكر، وإنما نمر من مفهوم لآخر بحدس مباشر، فكل فرد موقن عن طريق حدس مباشر، من وجود فكره الخاص وتأملاته العقلية المشروعة، فتصبح هذه الفكرة لا تخضع للشك العام، ومنهج الفلسفة حدس المبادئ البسيطة، واستنباط قضايا جديدة من المبادئ لكي تكون الفلسفة جملة واحدة "[1].

لهذا، سعى "ديكارت" إلى تأطير مشروعه الفلسفي ببعض أمهات المفاهيم الفلسفية عنده، وهي :"الذات" و"الشك"و"الحدس" و "الوضوح" و"الغموض"، و"الحقيقة" و"اليقين" التي تعتبر بمثابة البناء الذي يعمل على توجيه العقل في مساره المعرفي والعلمي والتأثير الحقيقي في مجالات

---

[1] - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت لبنان،(د ، ت)، ص 63.

الفكر "فكل حالة وعي، هي بوجه عام، في حد ذاتها وعي بشيء ما، هذا الذي لأكد عليه "هسرل"لأنه مهما كان أمر هذا الوجود الحقيقي لهذا الموضوع، ومهما كان إمساكي عن الحكم في إطار الموقف المتعالي الذي اتخذه بشأن وضع ذلك الوجود وبشأن كل أفعال الموقف الطبيعي. ومن ثم وجب أن نوسع من محتوى "الأنا أفكر" المتعالي، وأن نضيف له عنصرا جديدا، وأن نقول إن كل كوجيتو، أو فلنقل إن كل حالة وعي ترمي إلى شيء ما، وإنها تحمل في ذاتها من حيث هي مستهدفة (بما هي موضوع قصد ما) موضوع تفكيرها المناسب لها.

3- ثنائية الذات / الموضوع القصدية:

لا أحد ينكر ، أن نظرية القصدية الفينومينولوجية عند "هسرل" تهدف إلى إعادة الاعتبار للفلسفة التي خاضت خلافات كثيرة ومثيرة في الوقت ذاته حول اشكالية الفصل بين الذات والموضوع، أو تقديم أحدهما على الأخر ، وهذا ما جعل الانقسام الفلسفي ينشأ في وقت مبكر حول هذه الفكرة التي تمخضت عنها فلسفتين ، هما : الفلسفة المادية والفلسفة المثالية.

لذلك كانت محاولات "هسرل" جادة نحو السعي إلى نسف هذا الخلاف الذي حصل بين الفلسفتين، فاصطنع ثنائية جديدة، تمثلت في الذات /الموضوع والتي تربط بينهما العملية القصدية التي توحي بدورها إلى فعل القصد.

لم تكن هذه الفكرة وليدة الأفكار "الهسرلية" من حيث المنشأ، بل إنها تعود في الأساس إلى العالم النفساني "فرانس برينتانو" الذي يُعد من رواد التحليلات النفسية، وقد أخذ عنه تلميذه "هسرل" هذه الفكرة وحاول التفاعل معها بشكل يناسب توجهه الفلسفي حتى يتمكن الوصول إلى المعرفة الحقة، علماً أن مفهوم الحقيقة يستدعي المضي وراء معرفة مميزاتها ومدلولها في الحقل العلمي أوالحقل الفلسفي .

لقد ظهرت فكرة القصدية في ميدان علم النفس ليجعل منها "برينتانو" محورا مهما في دراساته النفسية ، فاعتبرها كقاعدة مهمة في رصد محتوى الحياة النفسية، فالقصدية بهذا المعنى ، هي النواة الأساسية تشتغل للكشف عن حقيقة الأحوال الشعورية وما تتضمنه من موضوعات، وفي هذا السياق بدأ المسار الفكري لـــ"هسرل" يتجه نحو الذات الانسانية، محاولاً في ذلك رفع الخلط الذي وقع فيه علم النفس التجريبي الذي آنس إدخال عمليات

القياس والاحصاء على الحالات الشعورية التي لا تقبل التكميم ولا التعميم، فبدأ يوظف التوجه القصدي في فلسفته الجديدة.

وتسمى حالات الوعي هذه في نظر "هسرل"حالات قصدية أيضا. إذ لا تعني كلمة قصدية شيئا غير هذه الخصيصة الأساسية العامة التي يتسم بها الوعي بأنه وعي بشيءما، من حيث هو كوجيتو يحمل "موضوع تفكيره" في ذاته.[1]

كما يقوم العقل باحتضان الحقائق ذات الطابع الحدسي على أساس أنها توفر له المنطلق المتين في رصد المبادئ الأولى للمعرفة، وهذه المبادئ تعد بمثابة القواعد الموجهة لنشاط العقل في تفاعله مع مختلف الموضوعات تفاعلاً منطقياً حتى تقيه من الوقوع في التناقض أو الأخطاء، بما " أنّ البداهة التامة وما يتعلق بها من حقيقة خالصة مضبوطة، إنما تظهران لنا كفكرة متضمنة في الميل إلى معرفة حدسية؛ فالصحة والخطأ، والنقد ومطابقة النقد للمعطيات البديهية، إن هي إلا موضوعات أثرت من قبل في الحياة السابقة على الحياة العلمية"[1].

لهذ أصبح للحدس قيمة معرفية، وبالتالي "لا يختلف الحدس من الناحية الاصطلاحية عن المفهوم اللغوي له، فهو معرفة حقيقية بيّنة، مهما كانت طبيعتها، تستعمل مبدئياً للتركيز على الاستدلال النظري، وتدور حول الأشياء وحول علاقاتها أيضاً، ومنه نقول، فكر حدسي في مقابل فكر استنتاجي وهو الذي يرى توليفا والذي ينشأ بدلاً من الاستدلال العقلي بتحليل وتجريدٍ"[2] .

إن المفهوم الحدسي ليس مجرد كلمة، وإنما هو إدراك مباشر لموضوع فكري، يتحدد في الرؤية العقلية، فالحدس كما يعرفه ديكارت : " أقصد بالحدس لا الشهادة المتغيرة للحواس ولا الحكم الخادع للمخيلة التي تسيء تركيب موضوعها، وإنما أقصد به إدراكا من ذهن خالص ومنتبه، إدراكا هو من اليسر والتميز بحيث يرتفع به كل شك عما نفهمه، أو قل الحدس هو الإدراك الراسخ لذهنخالص ومنتبه، الناشئ عن نورالعقل وحده والذي هو أيقن من الاستنباط، لأنه أبسط منه"[3]، فأفعال العقل التي تُوصل إلى المعرفة ترجع إلى فعلين اثنين وهما؛ الحدس من ناحية، والاستنباط من ناحية

---

[1] H.Husserl, Méditation Cartésiennes, ed, Vrin, 1966, p.28.

[1] – ادموند هسرل: تأملات ديكارتية، ترجمة، تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ــ لبنان 1958، ص 62.

[2]- André Lalande : vocabulaire technique et critique de la philosophie

[3]- R. Descartes : Œuvres et Lettres, La pléiade, Gallimard, 1953, pp. 43-44.

أخرى، إذ يعتبر الاستنباط هو استعمال الحدوس للمرور إلى النتائج عبر سلسلة منطقية كاملة حتى تصل إلى اليقين. والمنهج هو الاستعمال الجيد للحدس والاستنباط الذي يجمع بين النظام الذي تتبعه أحكامنا الثابتة والنظام الواقعي للأشياء.

3ـــــ مسألة اليقين:

نظرا لهذه الدواعي الفكرية المتعلقة بالمسائل المنهجية والمعرفية والعلمية،"فإن التفكير في اليقين يعدّ النموذج الابستيمولوجي الوحيد والمقبول في بعض الموضوعات التي ينطبق عليها، مثل المعرفة الرياضية" [3]. لذلك يستوجب أن تكون الذات المفكرة في تحديداتها المنهجية منسجمة مع فهمها لماهية العقل والواقع، فهي تعتقد أنها تحمل قبليا بديهيات وأفكار فطرية، ولذا لابد من تفعيل النشاط الحدسي للامساك بالبديهيات ثم تشغيل الاستنباط ليستخرج من البداهة ما يلزم عنها من معارف، فالمنهج الاستنباطي يكون أسلوبا في توجيه التفكير وقيادته من أجل الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة التي يريد "هسرل" بلوغها ليست الحقيقة التي يكتفي العقل الفردي بأن يتلقاها فحسب، بل إنها الحقيقة التي يعمل هذا العقل على اكتشافها في صلته بالواقع أو إعادة بنائها بنفسه، هذا لم يمنع "هسرل" أن يثور في هذا الشأن على المسائل المنطقية التقليدية التي لا تؤدي في نظره إلى بلوغ الحقيقة.

لقد كانت محاولات "هسرل"جادة في فض الخلاف التاريخي الذي طرحته الفلسفات المادية والفلسفات المثالية والعقلانية والتجريبية، وأن يقدم فلسفة متميزة تهتم بإعادة الوصل بين الذات والموضوع من خلال فكرة القصدية والوصول إلى ماهيات الأشياء، متجاوزا في ذلك الطرح التقليدي، وتقديم فهما موضوعيا يجمع الذات بالأشياء الموجودة في العالم عن طريق التأكيد على التجربة الذاتية الداخلية والنزوع نحو تجديد النظرة نحو بناء الجوانب العلمية والمعرفية والمنطقية، هذا الذي دفع الوجوديون احتضان أفكاره الفلسفية .

---

[3]- Jean-Luc Marion: sur l'ontologie grise de Descartes, Librairie philosophique, J.Vrin, 2000, p. 35.